الثانين الى التسعين فعددهم ليس بقليل في لبنان تشهد على ذلك الكتابات منها كتابة لاتينيّة محفوظة في كنيسة بيت خشبر يُستفاد منها انّ بعض الشيوخ توفي ولهُ من العمر ٨٧ سنة (راجع ايضاً بعثة فيذقية ص ٣٨٥ و ٣٨٦)

فهذه الآثار التي وصفناها تنبئ بقدم سر جبيل وخطورتها لكنّنا لا نعرف شيئاً من تاريخها السابق ولعلّها احدى القلاع التي خربها يُبيوس عند فتحهِ بلاد الشام (المشرق ٢ : ٥٠٧) والله اعلم. ومما اثبتهُ الدويهي في تاريخهِ (ص ٢٠٢) ما حرفهُ: « وفي سنة ١٦٣٠ في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نهار الاحد حدثت زلزلة مريعة. وفي الساعة الثالثة من الليل حلّت في قلعة سر جبيل وهدمت البرج الاوسط من جوانبهِ الاربعة وخرّبت جميع ما كان في القبو التحتاني المركّب على البئر »

هذا وفي بلاد البترون عدّة امكنة تستحقّ الذكر لآثارها فانّ الباحث يجد فيها من النواويس والنقوش ونحيت الحجارة ما هو دليل على اصالها القديم أخصّها كفرحتنا ومسرح وشبطين وكفر شليمن التي تكرّر ذكرها غير مرّة في اثناء مقالتنا عن كنائس لبنان والحقّ يقال انّ العمّة الاقدمين قد احسنوا في هذه القرية نقر صخورها. من ذلك ثلاث حُجر نقروها في الصخر على احسن هندام وآثار آلات النحت فيها مع قدمها بيّنة كأنّها نُقرت منذ زمن حديث

ومما عاينّا في مسرح نقوش محفورة في الصخر اكثرها دارس مطموس بقي منها صورة ثور وبقرة مسنّة وموقع هذه النقوش فوق اقبية عتيقة. وقد شاهدنا ايضاً تمثال شخص يُرجّح كونهُ امرأة وهي لابسة ثوباً رافلاً وفي يدها اليسرى رمّانة وعنقود عنب

(ستأتي البقيّة)

الطبّ في عهد الخلفاء وكتاب الفصول للرازي

نبذة للاب موريس كولبت اليسوعيّ قرأها في مؤتمر مكتبنا الطبي

انّ في مكتبتنا الشرقيّة عدّة تآليف طبيّة وضعها العرب نصفها ان شاء الله قريباً في مجلة المشرق وانّما اخترتُ بينها كتاباً رأيتهُ احقّ بالذكر من سواهُ لأعرضهُ على مؤتمركم السنوي علّهُ يوقفكم على شيء من احوال العرب الطبيّة في ايّام عزّهم. واسم

الكتاب المذكور « كتاب الفصول » لقراط زمانه الحكيم النطاسي ابي بكر محمد ابن زكريا الرازي احد ائمة الاطبّاء في خلافة العبّاسيين

ولمعرفة فضل هذا الكتاب فليسمح لي الحضور بان اورد لهم لمحةً من تاريخ الطبّ في عهد الخلافة العبّاسيّة. لمّا ابتنى ابو جعفر المنصور مدينة بغداد بلغهُ ذكر جنديسابور احدى مدن العجم وما لاطبّائها من الشهرة. وكان في تلك المدينة مدرسةٌ طبيّة وبيمارستان يدبّرهما النصارى وكان المتولي عليهما جيورجيوس بن جبريل بن بختيشوع. فانفذ المنصور اليهِ من يحضرهُ فحضر سنة ١٤٨ هـ (٧٧٥ م) بعد ان اوصى بامر البيمارستان ابنهُ بختيشوع. وكان الخليفة مصابًا بمرض وفسدت معدتهُ فعالجهُ جيورجيوس وتلطّف في تدبيرهِ الى ان رجع الى مزاجهِ الاوّل. فسرّ بهِ المنصور واراد ان يبقيهُ في بغداد فلم يزل جيورجيوس يلحّ عليهِ حتى أذن لهُ بالانصراف الى بلدهِ

لكن اطبّاء جنديسابور عظموا مذ ذاك الحين في اعين الخليفة واستصحب المنصور عيسى بن شهلاثا تلميذ جيورجيوس. ثمّ قدم بغداد غيرهُ من الاطبّاء اشهرهم بختيشوع ابن جيورجيوس وجبرائيل ابنهُ خدما هارون الرشيد وحظيا عندهُ. واشتهر ايضًا في ذلك الوقت في بغداد ماسويه الصيدلاني وابنهُ يوحنّا. وفي أيام يوحنّا بن ماسويه أُنشئ في مدينة السلام اوّل مستشفىً وكلّ الخليفة امرهُ اليهِ فقام بتدبيرهِ احسن قيام

فلمّا رأى الخلفاء وكبار الدولة ما نجم عن هذا المستشفى من المنافع اخذوا يتنافسون في انشاء غيرهِ فكثرت المارستانات واتّسعت اعمالها وتوفّرت اوقافها وكثر الاطبّاء حتى انّهُ كان لاحدها عشرون طبيبًا. ثمّ بلغ خبرها الى نحاء المملكة فجعل العمّال والاعيان ينشئون مثل هذه المقامات في حواضر المدن كمصر ودمشق وانطاكية والقدس الشريف. ولا نكير انّ هذه المستشفيات لم يمكن ثباتها واتساع نطاقها دون مدارس يتلقّى فيها الطلبة مبادئ الطب ويتعلّمون اسباب العلاج وطرائق التمريض. وقد برز من هؤلاء الاطبّاء قومٌ اشتهروا بتآليفهم ومعارفهم الجمّة. وكان لبعضهم من التلامذة عدد كثير يتقاطرون اليهم ويأخذون عنهم ويصحبونهم في عيادتهم للمرضى. ومن طالع ما كتبهُ عن احوال الاطبّاء وتواريخهم ابن القفطي وابن جلجل وابن ابي اصيبعة في كتاب طبقات الاطبّاء وابن العبري في تاريخ مختصر الدول لأخذهُ العجب عن ترقّي فنّ الطب في أيام الخلفاء وكثرة المؤلفات التي وُضعت في هذا العلم

ولمّا كثر عدد الاطباء تخوّف اصحاب الامر من ان يتخذ بعض المشعوذين هذه الحرفة لمجرّد الارتزاق دون ان يتقنوا مبادئ هذا الفنّ الجليل فتقدّم الخليفة القاهر الى طبيبه النطاسي سنان بن ثابت بأن يمتحن التطبّبين ويمنع من التصرّف كلّ من لم يجده كفوءاً لذلك ويطلق الى كلّ واحد منهم ما يصلح لهُ. قيل ان عدد هؤلاء المتطبّبين الذين كانوا في جانبي بغداد بلغ ٨٦٠ رجلاً سوى من استغنى عن هذا الفحص لشهرته ومن كانوا في خدمة السلطان. وصارت منذ ذاك الحين محنة الاطبّاء شاهداً على اقتدارهم وضميناً على حسن تصرّفهم كما تُطلب اليوم شهادة الطبيب قبل ان يرخّص لهُ بممارسة فنّه وهي الضامنة لنفوس العباد

ولو دخلنا احد هذه المستشفيات المدعوّة يومئذٍ «مارستانات»(١) لوجدنا انّ العرب سبقوا الى اشياء عديدة من حيث تقسيم العاهات ومعالجاتها فكانوا افرزوا حُجَرًا لاصحاب الحمّيات ومحلّات للمصابين بادواء العين ومقامات للمستريبن بالجنون او للاعمال الجراحيّة. وكان مديرو بعض هذه المستشفيات يجمعون في الليل من اصابهم الأرَق ولم يكحل النوم اجفانهم ليخفّفوا عنهم مُمِضّ السهاد اما باصوات المغنين واما بحكايات القصّاصين. وكان لكل مستشفىً سجلّات يدوّنون فيها احوال المريض وانواب المرض عليه وقد بلغ الينا بعض هذه الارصاد في تآليف الاقدمين

اما طريقتهم في التعليم فكانت غاية في السذاجة فكان لكلّ معلم فنّ خاصّ بهِ يملكُ اسرارهُ لتلامذتهِ. وربّما اتّخذ لتدريسهِ بعض الكتب الشهيرة من اليونان او الامّة الطب فيفسّرها لهم. وكان لكلّ مستشفى خزانة كُتُبٍ تتضمّن تآليف مشاهير الاطباء وتعريب افضل ما وضعهُ اليونان كبقراط وجالينوس وديوسقريدس وكانوا يؤثرون مصنّفات اليونان في الطب كما اقتفوا آثارهم في علم الهيئة والموسيقى والفلسفة. ولذلك تراهم يستشهدون بهم في مقالاتهم الطبيّة ويجلّونهم ايّ إجلال. ومما يُخبر عن جبرئيل ابن بختيشوع انهُ كان يسير مع الرشيد في بعض غزواتهِ حتى اذا وصل الى بلاد الروم ليس بعيدًا عن قبر جالينوس استأذن الخليفة ليزور استاذهُ ويكرّم ضريحهُ. فاجاب الخليفة الى سؤالهِ وارسل معهُ الف فارس ليراقبوهُ

بيد انّ العرب لم يقتصروا عن مراجعة كتب اليونان بل أعملوا النظر ايضاً في

(١) المارستان كلمة فارسيّة معناها محلّ المرضى. ويقال بيمارستان

تصانيف السريان والعجم والهند. وان تصفّحنا ما نجا من ايدي الضياع الى يومنا رأينا المكاتب الكبرى في الاستانة العليّة وباريس ولندرة وثينّة وبجريط وليدن ومصر حافلةً بالكتب الطبيّة. وفي مكتبتنا الشرقيّة كما سبق عدّة كتب طبيّة نكتفي اليوم بذكر « فصول الرازي » منها

الرازي نسبةً الى مدينة الريّ من اعمال العجم اسمٌ عُرف به كثيرون من مشاهير العرب الّا انّ اعظمهم شأنًا صاحب الكتاب الذي نحن بصدده واسمهُ ابو بكر محمّد ابن زكريّا ولد في أواسط القرن التاسع للميلاد قال ابن العبري في حقّه (ص ٢٧٤): « كان الرازيُّ في ابتداء امره يضرب بالعود ثمّ اقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيرًا والّف كتبًا كثيرة اكثرها في صناعة الطب وسائرها في المعارف الطبيعيّة ودبّر بيمارستان الريّ ثمّ بيمارستان بغداد زمانًا. وكانت وفاتهُ سنة ٣٢٠ هجريّة (٩٣٢ م). وتآليف الرازيّ لا تكاد تُحصى منها في فنّ الموسيقى والرياضيات والطبيعيّات والكيميا لكنّهُ في الطبّ اشهر منهُ في غيره. فلهُ تآليف عديدة في الجراحة وتدبير الصحّة والادوية وتشخيص الامراض والعلل الداخلية ورسالتان في الحصبة والجدري نُشرتا بالطبع ولهُ كتاب في المارستانات وتدبيرها. قال ابو الفرج عنهُ: « انهُ لم يكن يفارق النسخ اما يسوّد واما يبيّض »

وكتاب الفصول هذا يدعى ايضًا المرشد ذكرهُ ابن ابي أصيبعة في طبقات الاطباء. ونسختنا قديمة كُتبت سنة احدى وثمانين وستمائة للهجرة (١٢٨٢م) بخط نسخي غليظ حسن وفصولهُ بالحرف الاحمر طولهُ ٢١ سنتيمترًا في عرض ١٤ س لهُ جلد قديم منقوش يحتوي على ١٧٨ صفحة وفي كل صفحة ١٣ سطرًا. ونسخ هذا الكتاب نادرة جدًّا لم نجدْ لهُ ذكرًا في خزائن كتب اوربّة وقد وهم بروكلمان (Brockelmann p. 234) بقولهِ انّ في ليدن نسخة منهُ. ومما يدل على اعتبار الاقدمين لهذا الكتاب بيتان قرّظهُ بهما احد مالكي نسختنا يُدعى سقرطون (؟) احمد قال:

قد درتَ من طبيبٍ حاذقٍ آدابهُ في طبّهِ ترضيني
اهدى الشفاء الى المسامع عندما قرأ الفصول عليَّ بالقانون

وكانت غاية الرازي بتأليف هذا الكتاب ما قالهُ في مقدّمته ان يجعلهُ « مدخلًا الى صناعة الطب وطريقًا للمتعلّمين » ودعاهُ بالفصول معارضةً لفصول أبقراط وكان

وجد في فصول إمام الطب من « الاختلاط وعدم النظام والغموض » ما حداهُ الى وضع هذا الكتاب « فتحرّى في ذلك للايضاح والتسهيل وترك الاغراق والوغول في الغوامض مما يقع فيه الخلاف ويحتاج الى البحث والنظر »

ويلي المقدّمة عدّة فصول مرجعها الى ثلاثة اقسام يبيّن في الاول تركيب الانسان وصحّتهُ وفي الثاني ما يطرأ على مزاجه من الامراض مع تعريف هذه الامراض وتشخيصها وفي القسم الاخير يذكر الادوية لعلاجها وفي اثناء الفصول كلها وصايا عديدة لتدبير الصحّة

فلنختصر ما يقولهُ الرازي عن كلّ قسم من هذه الاقسام ليطّلع القرّاء على تعليم قدماء الاطبّاء وطرائقهم العلاجيّة

١ في تركيب الانسان وصحّته

يقول الرازي (ص ٥ — ١٧) انّ « الانسان مركّب من ثلثة اجناس وهي ارواح وجوامد وسوائل . فالارواح هي الابخرة التي فيه . والسوائل هي اخلاطهُ الاربعة اي الدم والصفراء والبلغم والسوداء . والجوامد كالعظم والغضروف واللحم ونحوها — انّ صحّة البدن تقوم باعتدال الاخلاط وحسن المزاج ولا بُدّ لذلك من امور كثيرة يعدّدها الرازي ويصفها اخصها الهواء والماء والغذاء

ثمّ يصف الرازي انواع الاهوية (ص ١٧ — ١٥) كالهواء اليابس والرطب والحارّ والبارد مع اختلاف هبوب الرياح ويذكر ما في كلّ منها من الخواصّ الموافقة للجسم او المنافية لصحته . وكذا يفعل بوصف المياه وحالاتها كالثلج والجليد وانواعها من حارّ وبارد وعذب وحلو (ص ٢٥ — ٢٨) . ثمّ ينتقل الى تعريف الاغذية وضروبها ما يصلح منها لاعتدال البدن واستعمالها على طريقة الصواب . والغاية من هذه الاغذية ان تصون الحركة الدمويّة والحرارة الطبيعيّة . والقلب يتروّح بانبساطهِ بان يجذب هواء باردًا الى الرئة ويخرجهُ عنهُ اذا سخن بانقباضه (ص ٩٦) . ويكون الهضم باستحالة الاغذية الى دم ومادّة موافقة لبقاء البدن ونموّهِ لأنّ « الغذاء اذا ورد المعدة احتوت عليهِ وطبختهُ حتى يصير فيها شيئًا بمنزلة ماء الشعير الثخين الذي تسمّيه الاطباء الكيلوس ثمّ انهُ يصير من هناك الى الامعاء فتمتصّ منهُ كامتصاص عروق الشجر موادّها من الارض ثم يحصل ذلك الكيلوس في العروق التي في لحم الكبد فيستحيل هناك دمًا ويتولّد فيه عند

الطبيخ والاستحالة رغوة وهو المرار الاصفر وثفل وهو المرار الاسود. ثمّ انّ المرار يجذب هذه الرغوة والطحال يجذب ذلك الدردي والكليتان تجذبان ما فضل فيه من الماء الرقيق فيبقى الدم نقيًا وتندفع الفضلات من النوافذ

٢ في الامراض وتشخيصها

الامراض هي الامور التي تحدث بُطلان فعل الاعضاء او نقصانها او الوجع فيها لتغيّر حدث له. والوجع لا يكون الّا من تغيير الشكل والمزاج. وسوء المزاج علّتهُ تغلّب احد الاخلاط الاربعة (ص٨١—٨٦). وان اعتبرنا الحمّيات (ص١١٤—١٢٤) « فعلّتها حرارة في القلب والدم. وهي اما عرَض وهي المتولدة عن وجع اهاجها كالاورام والصداع واما مَرَض وهي المبتدئة من غير عَرَض اهاجها. والحمّيات التي هي أمراض ثلثة اجناس: حمى يوم. وحمى غبّ. وحمى دقّ. فحمّى يوم تحصل من تسخين الارواح والاعياء والسهر والغمّ الخ. وحمّى الغبّ. ناتجة عن فساد الدم او عفونة الصفراء او البلغم. اما حمّى الدقّ فهي التي تتخلّف الاعضاء. وتكون اما مبتدئة فلم تبلغ الى تنحيف الاعضاء. واما محتقنة وهي التي تحلّل رطوبات الاعضاء. واما ذبولية وهي التي تُنفي اكثر رطوبات الاعضاء مع اطفاء الحرارة الغريزيّة"

ويكون تشخيص الامراض اي الاستدلال عليها (ص ٨٧ — ١٠٥) اما بعلامات ظاهرة كاللون والضعف وفحص البول واما بجسّ النبض. مثال ذلك (ص٥٩) انّ علامات زيادة البلغم البردُ في اللمس والكثرة في النوم والكسل. وعلامات زيادة المرارة صفرة اللون ومرارة الفم وجفافهُ وسرعة النبض. وعلامات غلبة الدم نفث الدم والاورام والحمّيات

اما البول فيدلّ حسنًا على حالة الدم. وينبغي ان يؤخذ البول بعد انتباه العليل من نومه الاطول قبل ان يشرب شيئًا ويُفحص لونهُ وما يرسب منهُ. اذا كان الراسب ابيض براقًا دلّ على نضج تامّ. واذا كان متملّقًا ابيض دلّ على نضج. وكلّ رسوب مخالف للّون الابيض فهو رديّ لانهُ يدلّ على فرط النضج الّا انّ الاسود شرّها (ص ٩٤)

وكما انّ البول يدلّ على حال الكبد في حرّه وبرده كذلك النبض يدلّ على حال القلب في الحرّ والبرد من التهابه واعتداله لانّ الشرايين انّما تنبثّ من تجويف القلب

الايسر ومنهُ تجري هذه القوَّة النابضة (ص ٩٦) فاذا كان سريعاً دلَّ على حرارة الدم الّا بعد الطعام او الرياضة القويَّة . وان كان بطيئاً دلَّ على برودة الدم الّا بعد الاستحمام

ولتشخيص الامراض دلائل عديدة مثال ذلك ان المحموم اذا اصابهُ في اليوم السابع قلق وتشوَّب وتقدَّمَ في اليوم الرابع رسوبٌ ابيض في بولهِ فلا بأس عليه . اما اذا تقدَّم في هذا اليوم بول اسود وساءت حال العليل خشيَ ان يتم ذلك السوء في اليوم السادس او اليوم الثامن (ص١٠٦)

ومن أعراض المرض البُحران وهو تغيير يحصل في حالة المريض وهو يكثر في اليوم السابع او الرابع عشر والعشرين . ويعتدل كونهُ في الخامس والتاسع والحادي عشر ولا يكاد يكون في سائر الأيام الّا في السادس والثامن واذا كان فيهما كان رديئاً في اكثر الامر . والبحرانات تختلف مع اختلاف موضع القمر من الشمس (ص ١٠٧ — ١١٠)

٣ في الادوية وتدبير الصحَّة

انَّ للرازي فصولاً عديدة في تدبير الصحة . وقبل كل شيء يوصي بتدبير الطعام والشراب ويشير بالعدول عن المسكرات لاسيَّما « الخمرة التي تنشُّ وتغلي حتى تنفش عنها الابزرة » لكنَّ للشراب منافع في حفظ الصحَّة اذا اصاب الانسان موضعهُ ووقتهُ أعان على الهضم وأخصب الجسم وأدرَّ الفضول . واذا استُعمل بافراط اورث عِلَلاً كالرعشة والفالج والسكتة والخوانيق والموت فجأةً والامراض الحارَّة واوجاع المفاصل (ص ٧١ — ٧٥)

الحمَّام يذهب مذهب الرياضة لانهُ يُمرق الجسم ويوسِّع المسامَّ ويلين اللحم ويبسط الاعضاء المتشنِّجة وينضج الزكام والنزلات . الّا انَّ للحمام مضارَّ للبعض خصوصاً اصحاب الحميات والمصابين بداء القلب (ص ٣٧ — ٤١)

الحركة تسمِّن البدن وتجفِّفهُ . ووقت استعمالها بعد الهضم التام وهي قبل الغذاء خير عظيم وبعدهُ شرٌّ عظيم . وينبغي ان يرتاض كل انسان بقدر احتمالهِ وقوَّتهِ (ص٣٣) . ولا بدَّ لمن يكون الهواء دائماً في غاية المواتاة وينتفع اصحاب قرحة الرئة بالهواء البارد اليابس والمحمومون بالهواء البارد الرطب (ص ١٤٧) . ومن حسن قول الرازي هنا:

أَلزم العليل في الامراض الحارَّة التبريدَ والترطيب ما امكن ودَفْعَ هذيان الاطبّاء. وتصلُّفهم بما ليس عندهم منهُ علم صحيح » (ص١٤٧—١٤٨)

واذا حلّ المرض فعلاجهُ التبديل والاستفراغ وتبديل المزاج. واعلم انَّ الطبيعة تجاهد العلل وتصارعها وتروم ازالتها فمتى كانت قويَّة بالغة لم تحتَج الى الطبيب ولذلك تسلم الامم القليلة الاستعمال للطب كالاكراد والاعراب ونحوهم من امراض كثيرة. لكن الاجود في هذه الحال ان يعينها الطبيب لتكون غلبتها العلل اسرع واقوى (ص١٤٠)

ومما يجب على الطبيب ان يُعنى به كل العناية أن لا يُسقط قوَّة العليل بتغذيته واراحته وسروره والميل مع شهواته التي تزيد في قوَّته والمنع من الامور التي تغشّهُ فانَّها تنقص قوَّتهُ ويجب ان يُقبل في بعض الامراض اولًا على قطع سبب العلَّة وفي بعضها على تقوية القوَّة (ص ١٢٦)

امَّا الادوية لتفريغ الاخلاط الرديئة فهي اولًا الفصد امَّا في الكتف واما في عرق الباسيليق او في الصافن او عرق الناصا على حسب الامراض. وثانيًا المسهلات لامراض الاعضاء العليا. ثالثًا المقيئات للاعضاء السفلى. وللرازي قائمة مطوَّلة ذكر فيها النباتات التي تصلح للمسهلات والمقيئ كالسقمونيا وغيرها. رابعًا المدرَّات لعلل الاعصاب والظهر والامراض الرطبة. خامسًا المعرّقات

ثم يُمدّد الرازيّ ما يصلح لتنقية كلّ عضو كالاذن والعين والأنف (ص١٢٩ — ١٤٠) وفي هذه الاقسام الفاظ كثيرة تعرف اصطلاحات الاقدمين يُستدلُّ على معناها بمفردات ابن البيطار

هذه خلاصة ما ورد في كتاب الفصول للرازي(١ مع وصايا عديدة حسنة لتدبير الصحَّة. ومن امعن النظر في هذا الكتاب وجد انَّ قدماء العرب مع تقصيرهم في امور كثيرة لم يدركوها او نقلوها على علّاتها عن اليونان لم يخلوا من الدراية ودقَّة النظر في الطب وأنواع العلاج فيستحقون شكرنا لأنهم نهجوا لخلفائهم سُبُلًا اتَّبعوها بعدهم فبلّغوا الطب مقاماً شريفًا. وانَّما الفضل للمتقدّم

١) اعلم انَّ جيرارد دي كريمونا الشهير نقل في القرن الثاني عشر الى اللاتينية كتبًا عديدًا للرازي من جملتها كتابان احدهما دعاهُ (liber divisionum) ونسختهُ كتاب تقسيم الامراض والاخر (Aphorismorum libri sex) لا ندري أهو كتاب الفصول ام غيرهُ. والأرجح انهُ ليس هو